

## عدن.. المدنية والحراك الثقافي

### سمير عبد الرحمن الشميري

أستاذ علم الاجتماع في كلية التربية - جامعة عدن.

«قد أكون مخطئاً وأحب الرجوع إلى الصواب».

الشيخ محمد بن سالم الببحاني.

### مقدمة

يقول الزعيم الهندي الراحل جواهر لال نهرو «إن المدن والثقافة والحضارة تسير جنباً إلى جنب... ومع نمو المدن يحدث نمو في العلم والمعرفة وروح الحرية».

لقد ازدهرت عدن وتطورت المدنية فيها، ولقد أعطى الاستعمار أهمية عظيمة لمدينة عدن، وبخاصة بعد فتح قناة السويس في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٦٩، وهذا الحدث الاقتصادي والعسكري كان نقطة تحول مهمة في تاريخ البحر الأحمر وتاريخ ميناء عدن المهم، وكذلك في تاريخ السياسة البريطانية في المنطقة بوجه عام<sup>(١)</sup>. ومما أضفى أهمية عظمى على مدينة عدن من الناحية الاستراتيجية والعسكرية والسياسية والاقتصادية هو انتقال مقر قيادة القوات البريطانية إلى عدن في النصف الثاني من الخمسينيات، لتكون مقراً للقوات الإنكليزية في الجزيرة العربية. وفي أوائل الستينيات أصبحت مقر القيادة العسكرية للقوات الإنكليزية في الشرق الأوسط.

ولقد أنشأ الإنكليز معمل تكرير البترول في عدن الصغرى، والذي أنتج في عام ١٩٥٥ خمسة ملايين طن من المحروقات الديزل والكيروسين والبترول (البنزين) والغازولين من أجل بيعها في أسواق البحر الأحمر، الأمر الذي أعطى فوائد في العام نفسه مبلغ ١٢٥ مليون دولار. وقدم ميناء عدن في بداية الخمسينيات خدمات لمجموعة من البواخر عددها ٥٧٤٢ تحمل ٢٦ مليون طن من البضائع<sup>(٢)</sup>.

(١) صالح علي باصرة، «عدن السياسة، والاقتصاد والثقافة»، الحكمة (عدن)، السنة ٢٠، العدد ١٧٤ (آب/أغسطس ١٩٩٠)، ص ٢٥.

(٢) عمر الجاوي، الصحافة النقابية في عدن، ١٩٥٧ - ١٩٦٧ (عدن: مؤسسة ١٤ أكتوبر للطباعة والنشر والتوزيع، [د.ت.]]، ص ٧.

وقد أصبحت عدن رمزاً من رموز المدينة والتحضر في المنطقة وعلى مستوى الوطن العربي، فشهدت انتعاشاً تجارياً واقتصادياً، وكانت مركز جذب اقتصادي واجتماعي وثقافي. وتميزت من سواها من المناطق اليمنية بالنهضة العمرانية، والتخطيط الحضري، وبرصانة الأنظمة والقوانين والتشريعات، وفعالية الهيئات والمؤسسات الحكومية والنظامية، وتوسع نوعي وكمي في الخدمات الاجتماعية والمرافق الصحية والتعليمية، ورفي خدمات الماء والكهرباء والتلفون والإدارة العقلانية والمتحضرة، وبروز وانتشار المنشآت الصناعية والحرفية، ورفي الخدمات. وتميزت أيضاً بالشواطئ الجميلة، وانتشار النوادي السياحية والترفيهية، والمؤسسات والجمعيات الثقافية والأدبية والمسرحية، وشهدت رقياً في وسائل الاتصال: الإذاعة والتلفزيون وحركة انتشار الصحف والمجلات، والطرق، والأحياء المخططة والنظيفة، وبنهوض سياسي ونقابي، وبهوامش ديمقراطية.

لماذا إذاً هذا التراجع المدني والثقافي لمدينة عدن؟ وما هي أهم قسّمات هذا التراجع؟ لماذا تطورت الحياة المدنية والثقافية في الخمسينيات والستينيات، وتقهقرت في ما بعد الاستقلال؟

لماذا احتوت الساحة الثقافية والفكرية والمدنية في الخمسينيات والستينيات على ثراء ثقافي وفكري، وتعايشت وتنافست الاتجاهات الفكرية والسياسية والثقافية بألوانها الطيفية المختلفة، وتحولت فيما بعد تدريجياً إلى الشمولية الثقافية والفكرية وإلى الانكماش والانزواء؟ وما هي أهم الإشكاليات المدنية التي تواجهها مدينة عدن؟

هذه جملة من المسائل والقضايا يتصدى لها البحث، ويحاول الإجابة عنها.

## أولاً: المقومات المدنية لمدينة عدن

الحضارة (Civilisation) مشتقة من الكلمة اللاتينية «Civlis» أي مدني، وهي تعني التطور الشامل الكمي والنوعي في حياة المجتمعات، بحيث يشمل هذا التطور بنية المجتمع المادية والفكرية والثقافية والعلمية.

وهناك اختلاف في مدلول الحضارة في الاستعمال الحديث بين الباحثين العرب، فمنهم من يعمم ذلك المدلول على كافة إنجازات المجتمع المادية والمعنوية، فالإنجازات المادية تشمل الإنتاج الصناعي والزراعي والنشاط التجاري وتدفقات رأس المال ومظاهر العمران. وتشمل الميادين المعنوية الإنتاج الفكري ومدارس البحث في قضايا المجتمع والدين والسياسة، وما يتبع ذلك من انتشار ذلك الإنتاج وتعميمه، ورسوخ نظرياته ومبادئه لدى أفراد المجتمع، كما يشمل الإنتاج الفني والأدبي، ويرتبط بالجانب المعنوي للحضارة وسلوكيات الفرد في المجتمع والعلاقات التي تربط بينهما<sup>(٣)</sup>.

والحضارة ظاهرة إنسانية عامة... فكل أجناس البشر متحضرة، وما من شعب إلا وله مستواه الحضاري<sup>(٤)</sup>.

والحضارة الإنسانية هي حضارة مدن قبل كل شيء. ويعني ذلك أن وضع المدينة العام هو انعكاس لحضارتها التي تتلخص بإيمان ساكني المدينة بما تفرزه من عقائد وأيديولوجيا،

(٣) أحمد قائد بركات، التخلّف... لماذا؟ التقدّم... لم لا؟ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦)، ص ٢٢.

(٤) حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة: ٢٣٧

(الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٨)، ص ٥٢.

لتكشف عن مدى قدرتها على تحرير الظروف البيئية والجغرافية بما يتفق مع حاجاتها وأفكارها وأذواقها ونظمها الخاصة. إن المدينة هي الإنسان متموضعا ضمن إطار جغرافي اجتماعي محدد يعبر عن نظرتة إلى العالم وعن تطلعاته وهمومه<sup>(٥)</sup>.

وظهور المدن وتطورها الحضري مرتبط بعدة عوامل أهمها:

١ - الموقع الجغرافي الاستراتيجي وموقعها من خطوط التجارة والمواصلات البرية والبحرية والجوية، وقد يدخل في هذا الإطار الموقع الاستراتيجي السياسي والموقع الاستراتيجي العسكري، علاوة على الموقع الطبيعي والثروات التي تكتنزها أو قربها من موطن الثروات.

٢ - الأهمية الاقتصادية من حيث توجد الصناعات والمنشآت والحرف والمؤسسات الإنتاجية والحركة التجارية والنهضة العمرانية، وتوفر فرص العمل وحركة التصنيع والإنتاج والاستيراد والتوزيع والأسواق التجارية، وتدقق رؤوس الأموال والحركة المصرفية والبنكية.

٣ - المركز السياسي للمدينة، حيث توجد النظم والنظام وهيئات الضبط الرسمية والمؤسسات الحكومية والمدنية والفعاليات والمصالح بشتى فروعها.

٤ - الكثافة السكانية والتخطيط الحضري، والتجمعات المدنية والجراك الاجتماعي والثقافي والانفتاح والثقافة، والتأثير والتأثر الثقافي والاجتماعي، وتعدد الثقافات الأساسية والفرعية..

٥ - الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي.

إن المدينة هي بالدرجة الأولى مركز الحكم، أو النفوذ والقوة (فيوجد فيها مؤسسات الدولة من وزارات وجيش ومحاكم ومجالس إنتاجية وسفارات... الخ)، ومركز التعليم (فيوجد فيها الجامعات والمدارس ودور النشر والصحف والمتاحف)، ومركز العبادة (فتوجد فيها المساجد والمآذن الكبرى والكاتدرائيات والكنائس... الخ) ومركز الإدارات والفنون والحرف والصناعات الترفية والخدمات العامة وغيرها<sup>(٦)</sup>.

وعدن من المدن الحضارية في الشرق، حيث قال هارولد ف. يعقوب: إن «عدن حسنة الشرق غير المعترف بها» (Cinderella of the East)<sup>(٧)</sup>.

ولقد سطع نجمها بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت من أهم الموانئ العالمية، ومركزاً لقيادة القوات الإنكليزية في الجزيرة العربية، ثم مقراً لقيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط (١٩٦١). وكانت تتمتع بوضع اقتصادي وتجاري أفضل بالمقارنة مع بقية المناطق اليمنية. فقد تطورت التجارة في عدن وتطور اقتصادها بشكل متسارع في سنوات الخمسينيات ومطلع الستينيات<sup>(٨)</sup>.

(٥) شاكز مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٨)، ص ١٠.  
(٦) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، ص ٩٠.

(٧) هارولد ف. يعقوب، ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة أحمد المضواحي (بيروت: دار العودة: صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٨٣)، ص ٣٤٦.

(٨) عبد الواسع قاسم، «بعض السمات الاقتصادية السياسية والاجتماعية التي سبقت الثورة اليمنية»، الثقافة الجديدة (عدن)، العدد ٥ (١٩٨٧)، ص ١٣٨.

وبحسب إحصاءات الكتاب السنوي لـ «بورت أوف إيدن» فقد استقبل ميناء عدن من آذار/مارس ١٩٥٩ وحتى نيسان/أبريل ١٩٦٠، ٥٨٠٨ بواخر حملتها ٢٦,٢٦٥,٦١٩ طنّاً، و١,٥٥٢ سفينة ساحلية حملتها ١٣٨,٩٩٦ طنّاً، كما مر بميناء عدن من نيسان/أبريل ١٩٦٠ وحتى آذار/مارس ١٩٦١، ٦٠٩٥ باخرة حملتها ٢٨,٦٢٣,٩٧٨ طنّاً، و١٤٧٧ سفينة ساحلية حملتها ١٣٢,٣٠٤ أطنان.

وقد كان ميناء عدن الثالث بالنسبة للتفريغ والشحن في دول الكومنولث البريطاني بعد ميناءي لندن وليفربول<sup>(٩)</sup>.

ولقد حاول الاستعمار البريطاني فصل عدن عن بقية المناطق اليمنية، وخلق لها وضعاً متميزاً وجذاباً، وبخاصة بعد أن فقد مصالحه في مصر ومناطق متفرقة من العالم، ولقد انصبت سياسته الاستعمارية منذ البداية على تذويب الهوية الوطنية اليمنية في مدينة عدن، حيث ركز على أن تكون عدن خليطاً من الأجناس.

كما أصبحت عدن مصبوبة بالصبغة الهندية. وتحمل مكاتب البريد المقامة في عدن الإعلانات والإرشادات المكتوبة على اللوحات والأعمدة باللغتين الهندوستانية والغوجریتیة، وتبدو اللغة العربية وكأنها لغة أجنبية<sup>(١٠)</sup>.

إن وجود الجاليات الأجنبية في عدن والخليط المتنوع للأقوام فيها قد جعلاً عدن مدينة متنوعة الثقافة والتقاليد والعادات بحكم تنوع سكانها عرقياً ولغوياً ودينياً<sup>(١١)</sup>. ولقد تميزت برقي اقتصادي واجتماعي وثقافي وسياسي ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبانفتاح على العالم وتأثير شديد بالحضارة الأوروبية، وبالنظم والقوانين والتشريعات والأنظمة الإدارية المتطورة والممارسات الديمقراطية الجزئية، وبالتخطيط الحضري والمجالس البلدية، والنهضة العمرانية، والخدمات الاجتماعية المتطورة والتنوعية، وبانفتاح الاقتصادي الحر وبالهجرات الكثيفة من الريف إلى المدينة، وبالهجرات الأجنبية الوافدة إلى عدن، حيث حرص الاستعمار البريطاني على تجسيد عدم المساواة ما بين الجاليات الأجنبية وأبناء عدن الريفيين القادمين من الريف اليمني، حيث كانت الأولوية للأجانب في المناصب الإدارية والترقيات والتوظيف... وحاول التفريق ما بين سكان عدن المحليين والوافدين إليها من الريف اليمني، باتجاه تعزيز نسيج الوحدة الوطنية اليمنية.

امتلات عدن بالعمال الذين جاءوا ليعملوا في الميناء أو محطة الكهرباء أو في أعمال البناء التي أخذت تنتشر آنذاك في مدينة عدن وأخذت تتشكل ملامح وعي وطني في اليمن. ففي وجه التحدي الاستعماري والانتشار الواسع للثقافة الإنكليزية أصبحت لغتها لغة رسمية للبلاد، وكذلك في وجه تشجيع الإنكليز للجاليات الأجنبية على إنتاج ثقافتها الخاصة وعملية التحطيم المستمر للهوية الثقافية اليمنية لمدينة عدن، أخذت تتشكل الجمعيات والنوادي الثقافية التي تضع على رأس مهماتها تأكيد الانتماء الثقافي العربي لمدينة عدن، وانتشار اللغة العربية والتعليم، وأقيمت المدارس الأهلية والدينية لهذا الغرض ذاته<sup>(١٢)</sup>. إن أهم ما فعلته النوادي والجمعيات كان

(٩) ل. فالكوفا، السياسة الاستعمارية في جنوب اليمن، ترجمة عمر الجاوي، ط ٢ (عدن: دار الهمداني، ١٩٨٤)، ص ١٥.

(١٠) يعقوب، ملوك شبه الجزيرة العربية، ص ٣٥٩.

(١١) ياصرة، «عدن السياسة، والاقتصاد والثقافة»، ص ٣٠.

(١٢) «مشروع الخطة الثقافية الوطنية»، الحلقة الأولى، ١٤ أكتوبر (عدن)، ١٢/١١/١٩٨٩، ص ٥.

يتعلق بمجال التعليم، وبالذات إرسال البعثات إلى الأقطار العربية الأخرى على حساب حكومات تلك الأقطار<sup>(١٣)</sup>.

إن الرقي الحضاري لعدن آنذاك، وطبيعة التطورات والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، قد أفرز تربة مؤاتية لعزوغ المؤسسات المدنية<sup>(١٤)</sup> بتلاوينها المختلفة. وفي أحياء هذه المدينة ظهرت أولى التنظيمات السياسية والاجتماعية الحديثة على مستوى الساحة اليمنية، وكانت ملجأ للأحرار اليمنيين وحضناً دافئاً لكل اليمنيين باتجاهاتهم الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية المختلفة. فظهرت الأحزاب على مستوى الساحة اليمنية في مدينة عدن: حزب الأحرار الدستوري ومن ثم الجمعية اليمنية الكبرى (١٩٤٥)، والجمعية الإسلامية (١٩٤٩)، والجمعية العدنية (١٩٤٩)، ورابطة أبناء الجنوب العربي (١٩٥٠)، والجهة الوطنية المتحدة (١٩٥٥)، وحزب البعث العربي الاشتراكي (١٩٥٦)، والحزب الوطني الاتحادي (١٩٥٧)، والاتحاد الشعبي الديمقراطي (١٩٥٧)، والقوميون العرب (١٩٥٩)، وحزب الشعب الاشتراكي (١٩٦٢)، والجهة القومية (١٩٦٣)، وجهة التحرير (١٩٦٥).

ومنذ أواخر الأربعينيات بدأت تظهر الجمعيات الخيرية والنوادي والجمعيات مثل: جمعية أولاد الفقراء، وجمعية السيارات، ونادي الشباب الثقافي... وخلال تلك الفترة زحرت عدن بعدد من النوادي والجمعيات القبلية والإقليمية بلغ تعدادها ما لا يقل عن ٥٢ نادياً وجمعية، ولكنها كانت محصورة ومغلقة على أبناء كل فئة وكل قبيلة وكل قرية. وكان لهم ناد أو جمعية خاصة بأبنائها فمثلاً: أبناء يافع.. أبناء الضالع.. أبناء شباب دثينة.. أبناء حبيش.. أبناء قدس.. شباب المياسرة.. أبناء ميون.. الأحرار في بيحان.. القبيطة واليوسيفين.. التعاون العربي.. الأغبري.. الذبحاني.. المقطري.. جمعية اتحاد الجنوب<sup>(١٥)</sup>.

وظهرت في عدن العدد العديد من الأندية الرياضية والأندية الثقافية: نادي الأدب العربي ونوادي الإصلاح العربي والإسلامي ومخيم أبي الطيب وكرمة أبي العلا ورابطة الجامعيين العدنيين ونادي الأدب والفن ونادي الشباب الأدبي وحلقة الملاح التائه ونادي الشباب الثقافي ورابطة شباب عدن والمنظمة المتحدة للشباب اليمني وجمعية المرأة العربية والرابطة القومية للكتاب العرب ومؤتمر الخريجين<sup>(١٦)</sup>.

وضمن تبلور المجتمع المدني الحديث وانتعاشه وبزوغه تساقق مع هذا الجراك ولادة الحركة النقابية اليمنية، حيث تكون مؤتمر عدن للنقابات في ٢٠/٣/١٩٥٦، والذي حوى على ٢٥ نقابة في مدينة عدن<sup>(١٧)</sup>. وكانت عدن المستعمرة، المدينة الوحيدة التي تتمتع بوضع ثقافي

(١٣) سلطان ناجي، «دور الجمعيات الإصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن» التربية الجديدة (عدن)، السنة ٢ (أيلول/سبتمبر - كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٢)، ص ١٠.

(١٤) نقصد بالمؤسسات المدنية جميع الفعاليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي تمارس مناشطها في المجتمع بأشكال واللوان مختلفة، ومستقلة عن أجهزة الدولة.

(١٥) عبده حسين سليمان أدهل، الاستقلال الضائع: الملف المنسي لأحداث اليمن الجنوبية، ط ٢ (د.م.: دار العهد للطباعة والنشر، ١٩٩٣)، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(١٦) علوي عبد الله طاهر، «عدن في التاريخ بين الازدهار والانحيار في عهد الزيريين إلى عهد الاشتراكيين» (٢٧ آب/أغسطس ١٩٩٧)، ص ٩٩.

(١٧) انظر: عبد الله علي مرشد، نشوء وتطور الحركة النقابية والعمالية اليمنية (بيروت: دار خلدون! عدن: وزارة الثقافة، ١٩٨١)، ص ١٢٩ - ١٣٠.

أفضل من سواها من المدن اليمنية، وكذلك من باقي المدن في الجزيرة العربية بفضل وجود حركة أدبية وطنية نشطة<sup>(١٨)</sup>.

وقد انتشرت فيها الصحف والمجلات والمطابع والأندية الثقافية والأدبية والرياضية والترفيهية، والمكتبات والحدائق والمتنفسات السياحية ودور السينما، والمواصلات البرية والبحرية والجوية الحديثة، والطيران والبريد والتجمعات السياسية والأهلية، والجمعيات النسوية.

كما كان يوجد في عدن نشاط اجتماعي للمرأة. ففي مطلع الخمسينيات تأسس نادي نساء عدن، وكان معظم أعضائه من الأوروبيات ونساء المجتمع العدني ورئيسته إنكليزية. كما كانت توجد الجمعية العدنية للنساء وكانت تضم نساء عدن لرعاية الطفل. وفي مطلع الستينيات كانت توجد جمعية المرأة العربية، وكانت قيادتها من عناصر الحركة الوطنية وجمعية المرأة العدنية<sup>(١٩)</sup>.

لقد تطورت الحياة الثقافية والمدنية في مدينة عدن وشهدت إبداعاً وتنافساً ثقافياً. وفي خضم الجراك الثقافي، افتتحت إذاعة عدن عام ١٩٥٥، وظهر التلفزيون فيها في ١١/٩/١٩٦٤.

وما عمالقة الفكر والثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد إلا انعكاس لطبيعة الرقي الحضاري فيها آنذاك، وقد برزت في عالم الفكر والأدب والثقافة أسماء بارزة في سماء الثقافة اليمنية نذكر منها على سبيل المثال: محمد عبده غانم، ولطفي جعفر أمان، ومحمد علي لقمان، وعلي محمد لقمان، ومحمد سعيد مسواط، ومحمد سعيد جرادة، ومحمد مرشد ناجي، وأحمد قاسم، ويحيى مكي، وحمزة علي لقمان، والشيخ محمد بن سالم البيحاني، والشيخ علي محمد باحميش، وأحمد شريف الرفاعي، وعبد الله باذيب، وحامد عبد الله خليفة، وكمال حيدر، وإدريس حنبلة، وعبد الله فاضل فارغ، وعايض سالمين باسنيد، ومحسن حسن خليفة، وهاشم عبد الله، وخليل محمد خليل. واللافت للانتباه أنه تعايشت وتطورت الاتجاهات الفنية والأدبية والثقافية المختلفة وتنافست، وأبدعت في ظل احترام للرأي الآخر. فهذا هو الشيخ محمد بن سالم البيحاني (١٩٠٨ - ١٩٧٢) في مؤلفه **زوبعة في قارورة** يرد على الشيخ علي محمد باحميش (١٩١٠ - ١٩٧٧) وبعض علماء عدن وحضرموت بقوله:

قد أكون مخطئاً وأحب الرجوع إلى الحق، كما أكون مصيباً ولا أحب أن أترك الصواب. فقد أسامح وأذكر قوله تعالى: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩] (٢٠).

وأثرت الثقافات الفرعية للجاليات الأجنبية في عدن الحياة الثقافية والفكرية، فالتنوع الثقافي يشكل أساساً من أسس الأبداع، ويثري الثقافة والفكر ويعزز التسامح العرقي والمذهبي والعقائدي ويزيل التعصب الأعمى. ففي عدن تجد «المسلم الذي يصلي إلى الله، والفارسي الذي يصلي إلى الشمس، والبناني الذي يصلي إلى الأوثان، والمسيحي مكرم الصور والصلبان،

(١٨) قاسم، «بعض السمات الاقتصادية السياسية والاجتماعية التي سبقت الثورة اليمنية»، ص ١٥٣.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٢٠) الشيخ محمد بن سالم البيحاني، **زوبعة في قارورة: رسالة ودية إلى بعض علماء عدن وحضرموت** (عدن: دار الشعب للطباعة والنشر، [د.ت.])، ص ١ - ٢.

والإسماعيلي صاحب الزمان، واليهودي مُسيح الذهب الرنّان.. كل هؤلاء يتاجرون ولا يتنافرون ويربحون ولا يفاخرون.. والتاجر وطنياً كان أو أجنبياً.. لا يهمه من الحكومة غير الأمن والنظام»<sup>(٢١)</sup>.

ولقد كانت الجالية الهندية من أبرز الجاليات الأجنبية التي أغنت سماء الثقافة في عدن بالتنوع، ويعود الفضل إلى الهنود في ظهور المسرح في عدن عام ١٩٠٤، فالجالية الهندية أكبر الجاليات الأجنبية.. ومن خلال هذه الجالية الكبيرة في عدن وقدرتها على توثيق صلاتها بأهالي البلاد والتأثر بهم والتأثير فيهم كان من السهل أن تتقارب الأمزجة والمشارب والأذواق.. وأن يؤدي هذا التأثير المتبادل إلى تشكيل ذوق عام، أو ما يمكن أن يوصف بأنه إحساس مشترك إن جاز التعبير.. وامتد ذلك التأثير وتعمق زمنياً طويلاً حتى شمل غالبية سكان عدن وترك آثاراً لا تخطئها العين وما زالت بصماتها واضحة إلى اليوم<sup>(٢٢)</sup>.

وكانت الجاليات الأجنبية من صومال وهنود وفرنس.. تشكل جزءاً مهماً من التركيب الديمغرافي لمدينة عدن، وجزءاً من مكوناتها الثقافية والاجتماعية.

وبحسب الإحصاء السكاني لعام ١٩٤٦ وصل تعداد سكان مدينة عدن إلى ٨٢,٧٩٠ نسمة وعلى النحو التالي<sup>(٢٣)</sup>:

الجنسية	العدد
عرب	٥٨,٤٥٥
يهود	٧,٢٧٣
صومال	٤,٣٢٥
هنود	٩,٤٥٢
أوروبيون	٣٦٦
جوانيز وغيرهم	٣٤٩

ولقد احتكرت التجارة في عموم عدن الشركات الأوروبية، البريطانية والفرنسية، وفي حافة الدرازية (الخطاطين) الهندوس واليهود والفرنس (المجوس)، واليونانيون وجاليات أخرى احتكرت تجارة الاستيراد والبيع بالجملة<sup>(٢٤)</sup>.

إن هذا التنوع الثقافي والاجتماعي والعقائدي والفكري لمدينة عدن شكل علامة إيجابية في مسار الحركة الثقافية والسياسية والفكرية اليمنية، ومن دون شك إلى جانب ذلك ترك آثاراً سلبية، فإن عملية التمدن قد تسبب انحطاطاً في القيم والشعائر الدينية كما قد يحدث العكس<sup>(٢٥)</sup>.

وامتداداً لما سلف، يمكن تلخيص مقومات المدنية والنهوض الحضاري لمدينة عدن في

(٢١) أمين الريحاني، هلوك العرب (بيروت: [د. ن.]، ١٩٨٦)، ص ٤٠٣.

(٢٢) سعيد عولقي، سبعون عاماً من المسوح اليمني (عدن: وزارة الثقافة والسياحة، دائرة التأليف والنشر، ١٩٨٣)، ص ١٣ - ١٤.

(٢٣) فتاة الجزيرة (عدن)، ١٩٤٨/١٢/١٧، ص ٢.

(٢٤) أدمل، الاستقلال الضائع: الملف المنسي لإحداث اليمن الجنوبية، ص ١٨٤.

(٢٥) نقلاً عن: ف. كوستلر، علم الاجتماع الحضري: التمدن في الشرق الأوسط، ترجمة أبو بكر باقادر (بيروت: دار القلم، [د. ت.]، ص ١٠٢).

الحقبة المشار إليها آنفاً على النحو التالي:

- الموقع الجغرافي والاستراتيجي لمدينة عدن.
- الانتعاش الاقتصادي.
- الإدارة الحديثة والأنظمة العصرية الحديثة.
- سيادة القانون والتشريعات.
- الحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية.
- التسامح الفكري والعقائدي والانفتاح المدني.
- نمو وازدهار المجتمع المدني.
- الثقافة والتأثر والتأثير الثقافي والحضاري.
- الثقافات الفرعية المحلية والأجنبية.
- الاستقرار النفسي والاجتماعي والعيشي والحياتي.
- العدالة الاجتماعية المنقوصة<sup>(٢٦)</sup>.

## ثانياً: مراحل الحياة المدنية والثقافية في مدينة عدن

يمكن تقسيم مراحل الحياة المدنية والثقافية في مدينة عدن إلى ثلاث مراحل:

- مرحلة النهوض المدني والثقافي (الخمسينيات حتى الاستقلال)
- مرحلة الشمولية (السبعينيات - الثمانينيات)
- مرحلة الركود والانطواء (من ١٩٩٠ - حتى الآن).

### ١ - المرحلة الأولى

تميزت بانفتاح اقتصادي وتنوع النشاط الاقتصادية (التجارية، والصناعية، والحرفية)، وتساقق ذلك مع بروز دور ميناء عدن الاقتصادي والتجاري ومع حركة عمرانية مزدهرة وقوة الحركة المالية والبنكية. ولقد تميزت الإدارة بالحدثة والديناميكية والعقلانية والعلمية.

---

(٢٦) نقصد بالعدالة الاجتماعية المنقوصة أنه في مدينة عدن في فترة الاستعمار البريطاني كانت توجد عدالة بشكل عام أحسن مما هو موجود في السلطانات والمشيكات وأحسن مما هو موجود في النظام الإمامي في شمال الوطن، وهذه العدالة منقوصة لأنها تفرق في المعاملة ما بين اليمنيين وترفع من قدر الأجانب... حيث كان للأجانب المرتبة الأولى في التقدير والمعاملات والراتب والمواقع الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية... ثم يليهم سكان عدن المحليين (أصحاب المآلق).

أما سكان المحميات الجنوبية والوافدون من المناطق الشمالية، فكانت حقوقهم منقوصة من الناحية الثقافية والاجتماعية... حيث كانوا مثلاً: يمنعون من دخول المدارس الحكومية ومن بعض الخدمات الاجتماعية... وانتشار المدارس الأهلية في مدينة عدن يكون من أحد مسبباته القوية القانون البريطاني الذي يمنع دخول غير العدنيين المدارس الحكومية، ومن أشهر المدارس الأهلية في مدينة عدن: مدرسة بازعة وكلية بلقيس، والعهد العلمي الإسلامي.



وامتداداً لهذا الجراك تكونت كتل اجتماعية جديدة عمالية وتجارية وحرفية وشبه صناعية. وتوسعت شريحة الموظفين والفنيين والمثقفين. وعزز هذا الوضع من مكانة الحركة المدنية في عدن ومن سلطان النظم والقوانين، وظهور وتطور التجمعات المدنية الثقافية والنقابية والسياسية والاجتماعية. وتزامن مع ذلك ارتفاع ثقافي وتعليمي وانفتاح مدني حضاري.. ولقد تميزت هذه المرحلة ليس فقط بالنهوض الحضاري والمدني والثقافي، وإنما شكلت هذه الظروف إمكانية كبيرة لبزوغ ثقافة منفتحة ذات طابع نوعي، تتعايش فيها جميع ألوان الطيف الثقافي والمدني باتجاهاتها الليبرالية والقومية والدينية والإصلاحية والاشتراكية.. مع بروز للثقافات الفرعية الأجنبية (الهندية، والفارسية، والأفريقية).

## ٢ - المرحلة الثانية

في هذه المرحلة ظهرت الشمولية في الاقتصاد وامتدت إلى الأفرع المختلفة، وكان السعي حثيثاً نحو تعميم الملكية دون دراسة متقنة لهذا الأمر، الأمر الذي أدى إلى تطرفات في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة. فتعززت المركزية وتقوت الشمولية، ومنها الشمولية الثقافية والمدنية، حيث تم تقزيم وتحجيم المدارس والاتجاهات الثقافية والمدنية المغايرة، وإبراز التجمعات المدنية والثقافية بطابعها الاشتراكي.. حيث شهدت هذه المرحلة نهضة في الثقافة الاشتراكية مع منع أو تضيق الخناق على الاتجاهات الأخرى المغايرة، فتقوت الاتجاهات التحديثية ذات المنحى الاشتراكي، الأمر الذي قلل من عملية الجراك الثقافي والمدني والثقافة والتنوع، وأحدث خللاً في البنية الثقافية والمدنية. ولقد أشار أحد المثقفين إلى الحصار الثقافي في تلك المرحلة حيث يقول: «إنني لاحظ أن هناك تضيقاً على كتب بعينها وعلى أشخاص بعينهم، وإفساحاً في المجال لكل الفئات التي تتلقى تعليماً وقرارات بعينها مع رخص ثمنها لإغرائهم بشرائها. فانت عندما تزور إحدى مكاتب البيع، تلاحظ أن أرفف هذه المكتبة تحوي مجموعة من القصص والروايات ودواوين الشعر والكتب المترجمة، بينما إذا بحثت عن كتاب يخدم تخصصك أو يخدم المعرفة الإنسانية لن تجده، وإن وجد ففي المعارض الموسمية مع قلته، ناهيك عن مقررات التعليم التي تعطى لطلاب المرحلة الموحدة، فتجد الطالب يعرف عن كروبسكايا أكثر مما يعرف عن خديجة بنت خويلد، وهو على إلمام بالتقسيمات الإدارية للاتحاد السوفياتي أو فرنسا بينما يجهل التقسيمات الإدارية لجمهورية موريتانيا. إذا عرجنا إلى كليات جامعة عدن ولناخذ كلية التربية بالكلية مثلاً، فإن المرء ينتابه القرف والغيب وهو يرى محاضرين من ذوي المؤهلات الرخيصة يمارسون الإرهاب الفكري الذي يضع درجة الرسوب لكل من يناقش أو يستفسر، فما بالك بمن يخالف المحاضر الرأي!!»<sup>(٢٧)</sup>.

ولقد جرت محاولات في هذه الحقبة لإرساء مدامك للثقافة الوطنية، حيث توسعت بعض المنشآت الثقافية والتعليمية. وتم السعي صوب تطبيق إلزامية التعليم، وأسست بعض المراكز وتم إنشاء المكتبات العامة والمؤسسات المتخصصة في مجالات الفنون والآثار والثقافة الشعبية، وكذلك فقد شرعت الدولة الوطنية بتأهيل الكوادر الوطنية في الحقول الثقافية والفنية المختلفة، وشجعت التواصل الثقافي وانتشار الكتاب وقيام الاتحادات الإبداعية.

(٢٧) محمد أبو بكر الحداد، «الحصار الثقافي»، الحكمة، السنة ١٩، العدد ١٥٦ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٩)، ص ٣١ - ٣٢.

غير ان احتكار الدولة للمجال الثقافي قد عطل إمكانيات الإبداع عند الجماهير وحول العمل الثقافي والفني إلى جزء عام من الخدمات التي تقدم للجماهير، الأمر الذي شل مبادرة هذه الجماهير وأعاقها في المشاركة بفعالية في هذه النشاطات. ويمكن أن نلاحظ هذه الظاهرة في المسرح والغناء والموسيقى، حيث اختفت الفرق الشعبية، وحلت محلها فرق وطنية تعمل تحت إشراف الدولة... وتحولت العملية الإبداعية إلى وظيفة رسمية.

واتجه الإبداع صوب الدعائية السطحية، فظهرت تيارات داعية إلى تجديد الأدب أو الشعر الحر أو الحداثة أو غيرها من الظواهر الثقافية التي انتشرت في السبعينيات، ومنها الموقف المنحاز إلى الجديد في الأدب ضد القديم الذي جرت عملية عزله ومحاربته. كما جرى التركيز على الأغنية الجماهيرية والجماعية في وجه الإبداع الفردي، وتغليب الأغنية السياسية على الأغنية العاطفية<sup>(٢٨)</sup>.

### ٣ - المرحلة الثالثة

تتميز هذه المرحلة بتراجع الحياة الثقافية والمعدنية وبركود وانطواء، حيث قلّت الإمكانيات المادية وضعفت خطط الاستراتيجية الثقافية والمدنية، وساد انطواء ثقافي للمثقفين والمبدعين وتحولت الفعاليات والأنشطة المدنية والثقافية من افتتاح إلى انعزال، حيث حلت «مبارز القات» محل الأنشطة الثقافية والمدنية والإبداعية، ولم تعد جماهيرية للثقافة والمثقفين وإن أبدعوا فلأنفسهم، فهم المنتجون وهم المستهلكون لهذا الإنتاج. وتلاشى تدريجياً الطابع الجماهيري للثقافة على أثر إغلاق بعض المؤسسات الثقافية والإبداعية، مثل فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في كريتر والتواهي. وتلاشت أو جُمعت الفرق الموسيقية والفنية والمسرحية والأكروبات والرقص، وتراجعت الحركة المسرحية، حيث أغلق «المسرح الوطني التواهي». وحدثت بعض التصرفات مثل السطو على أراضي وممتلكات بعض المؤسسات والأندية مثلما حصل لنادي التلال الرياضي في كريتر... فاشتدت غربة المثقفين والفنانين والمبدعين، وتراجعت أدوار المؤسسات المدنية والثقافية، وإن تكاثرت بأسمائها. وهذا الحديث لا ينفي وجود فعاليات ومؤسسات ثقافية وأنشطة ثقافية موسمية، إلا أن ما يؤخذ على هذه الفعاليات الثقافية مثل الندوات والمؤتمرات، هي أنها تعقد داخل أماكن راقية معزولة كالفنادق والأندية الكبرى والقاعات الفاخرة وأماكن أخرى عديدة لا يؤمها الناس العاديون، بل ربما يرهبون دخولها أيضاً. إن هذه الفكرة «المكانية» عن المؤتمر وبدعوة ضرورة توافر شروط خدمية لعقد أي مؤتمر، تعكس طبيعة عزل الثقافة عن الناس، وتحويلها شيئاً فشيئاً إلى موضوع نخبوي كهنوتي هو فوق الجميع ولا يتعاطى مع هذا المجتمع<sup>(٢٩)</sup>.

وغني عن القول ان هناك توسعاً أفقياً في التعليم العام والجامعي في عدن والمدن اليمنية الأخرى، حيث زاد عدد المدارس والمعاهد والجامعات. ولكن هذه الزيادة ما كان لها تأثير يذكر في إيجاد وعي مجتمعي فعال أو ريادة علمية معطاءة.. ومن اللافت للنظر أنه مع زيادة هذا الرصيد من حاملي الدرجات العلمية ما زال التخلف يضرب أوتاده في الساحة المجتمعية. وليس النظام التعليمي بآطره ومؤسساته ومناهجه ومضامينه هو السبب الوحيد، إذ تتعدد الأسباب،

(٢٨) «مشروع الخطة الثقافية»، الحلقة الثانية، ١٤ أكتوبر، ١٣/١١/١٩٨٩، ص ٤.  
(٢٩) سلوى بكر، «فاعلية المؤتمرات الثقافية العربية»، باحثات، العدد ٣ (١٩٩٦ - ١٩٩٧)، ص ٢٥٠.

منها ما هو اجتماعي ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو ثقافي ومنها ما هو غير ذلك<sup>(٣٠)</sup>.

### ثالثاً: أهم المشاكل المدنية والحضرية لمدينة عدن

إن مدينة عدن تعاني مشاكل عدة ولعل أبرزها:

١ - أزمة اقتصادية وتدهور الحياة المعيشية (وهذا وضع عام) وانتقال بعض الفئات العليا إلى فئات وسطى، وتدهور أوضاع بعض الكتل الاجتماعية المتوسطة وتحولها إلى فئات فقيرة، وازدياد وطأة الفقر على الفئات الاجتماعية الفقيرة.

٢ - ازدياد رقعة التريف لمدينة عدن، من حيث انتقال كتل بشرية من الريف إلى المدينة واتساع نطاق الاحتكام للأعراف والقواعد والعادات الريفية في المدينة، وعدم الاكتراث بالأنظمة والقوانين والتشريعات المدنية، وتأثير النازحين إلى المدينة على عادات وتقاليدها المدنية. وانتقلت العصبية القبلية والعشائرية والمناطقية والعائلية إلى المدينة، وتبدلت بعض القيم والعادات، حيث نلاحظ انتشار ظاهرة الثار في المدينة، وتحقير بعض الفئات الاجتماعية على أساس العرق والأنساب، والانتشار المذهل لعادة مضغ القات حتى وصلت إلى الصبيان والصبيات. وتكونت مجالس قات نسائية في المدينة، وتراجع دور المرأة الاجتماعي والتنموي، وازدادت دائرة التضييق عليها، وانتشر التشدد الاجتماعي والتعصب العقائدي، إلى جانب تراجع روح الاخاء والتسامح المدني، واتساع نطاق استخدام القوة والعنف والمظاهر المسلحة، وضعف الهيئات والمؤسسات النظامية، علاوة على بعض التصرفات المخلة بالقانون.

فلقد أثرت الهجرة من الريف إلى مدينة عدن في إضعاف الطابع النوعي للخدمات، والنمو السكاني يتطلب إمكانات مادية للحفاظ على بعض المظاهر والخدمات وتحسينها. فنمو السكان في عدن ازداد بشكل متسارع وعلى النحو التالي:

العام	عدد السكان	العام	عدد السكان
١٨٣٩	١٢٨٩	١٩١١	٤٦٢٠٠
١٨٤٠	٤٦٠٠	١٩٢١	٥٦٥٠٠
١٨٤٢	١٦٥٢٧	١٩٣١	٥١٥٠٠
١٨٤٩	١٩٢٤٥	١٩٤٦	٨٠٥١٦
١٨٥٦	٢٠٧٢٧	١٩٥٥	١٣٨٤٤١
١٨٦٧	١٧٥٤٦	١٩٦٥	٢٨٥٠٠٠
١٨٧٢	١٩٢٨٩	١٩٧٣	٢٤٠٣٨٠
١٨٨١	٣٥٠٠٠	١٩٨٨	٣١٤٤٣٩
١٨٩١	٤٤١٠٠	١٩٩٤	٣٩٨٣٩٩
١٩٠١	٤٤٠٠٠	١٩٩٧	٤٤٨١٤٥

المصدر: أمين علي محمد حسن، «اتجاه النمو الحضري في مدينة عدن»، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية (جامعة عدن)، السنة ٢، العدد ٣ (كانون الثاني/يناير - حزيران/يونيو ١٩٩٩)، ص ٦٥.

(٣٠) أسامة عبد الرحمن، المثقفون والبحث عن مسار: دور المثقفين في أقطار الخليج العربية في التنمية، سلسلة الثقافة القومية؛ ٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧)، ص ١٤ - ١٥.

٣ - تعاني عدن بعض التصرفات العشوائية مثل السطو غير المشروع على الأراضي والمتنفسات والحدائق وملاعب الأطفال والشواطئ والأندية الثقافية والترفيهية والرياضية، وعلى مساحات بعض المؤسسات الخدمية التعليمية والصحية والرياضية والصناعية والحرفية. ويقوم البعض بالبناء فوق خطوط الكهرباء والتلفونات وشبكة الماء والصرف الصحي.

٤ - شهدت عدن توسعاً عمرانياً كثيفاً في الفترة الأخيرة، إلا أن التوسع العمراني أحياناً غير مخطط وغير منظم، حيث تراجعت أدوار مؤسسات البلدية والتخطيط الحضري، الأمر الذي يشجع العمران العشوائي ويشوّه الطابع الجمالي للمدينة، ويحدث إرباكات في المجالات الأخرى.

٥ - فقدان مؤسسات المجتمع المدني (معظمها) للاستقلالية، وغياب الدور الفاعل لهذه المؤسسات والتي تغني الطابع المدني التحديثي للمدينة، وتساعد كثيراً على محاصرة الإخلالات والتنبيه لها..

٦ - عدم حل مشكلة المساكن والمحلات التجارية المؤجرة. وقد بذلت مساعي في هذا الاتجاه، إلا أن تعليق هذه القضية وترحيلها لا يساعد بتاتاً على السكينة الاجتماعية.

٧ - انهيار بعض النظم والقوانين، وتلاشي الدور الفاعل لمؤسسات الضبط وقلة فعالية المؤسسات المدنية الرسمية والشعبية، وتشابك بعض مهام الهيئات والمصالح.

٨ - انتشار رقعة الفساد والفوضى، فالفوضى على حد تعبير عبد الرحمن بن خلدون: «مهلكة للبشر، مفسدة للعمران»<sup>(٣١)</sup>.

٩ - تغير بعض القيم والعادات والتقاليد، فهناك تراجع في القيم الروحية (الصفاء، التسامح، حسن النية، البساطة، سعة الصدر، التضامن، البراءة، الرحمة، الشهامة، الكبرياء والألفة...)، لتحل محلها القيم المادية والفردية والانانية، فالجاه والمال والوضع الاجتماعي أصبحت من المعايير والقيم الأخلاقية السائدة التي تحدد وضع الفرد وسلوكاته وتصرفاته.

١٠ - تراجع بعض الخدمات الاجتماعية بطابعها النوعي، واتجاه المؤسسات والمصالح صوب الربح.

١١ - زيادة الانحرافات الاجتماعية.

## خاتمة

إن الحرية الفكرية والمدنية والثقافية تعطي زاداً قوياً للتطور والثقاف والإبداع، وتؤدي إلى مزيد من الثراء الثقافي والإبداعي. فالتجمعات المدنية تساهم في بناء المجتمع وتعزز من مناشط ومساهمة أفراده، وتساعد كثيراً على مزيد من التمازج الاجتماعي والحضاري، فهي تشكل جزءاً من عملية التنمية الشاملة للمجتمع، والتي ليس باستطاعة المؤسسات الرسمية القيام بجميع أفرعها.

(٣١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (بيروت: دار الفكر، [د.ت.])،

إن فرض لون ثقافي واحد وأحادية فكرية أو مدنية على المجتمع والمبدعين والمتنورين يقتل الحركة الثقافية والمدنية ويقودها إلى التقوقع أو الانحسار، ولربما إلى الجمود والانحطاط.

ومراحل الحياة الثقافية والمدنية في مدينة عدن، قد بينت لنا باللموس عوامل معينة ومتداخلة: انتعاش اقتصادي، وحركة تجارية، وتحسن حياة الأفراد، وإدارة حكيمة ومتزنة، وتخطيط عقلائي، وتعايش اجتماعي، وقوة سلطة الهيئات النظامية والأنظمة والقوانين، والحرية الثقافية والمدنية والإبداعية، وانتشار روح التسامح، واستقلال السلطات، السكون والرخاء الاجتماعي... كل هذه العوامل وغيرها تؤدي إلى طفرة نوعية حضارية ومدنية وإلى انتعاش ثقافي وحضري. وما يميز فترة ما بعد الاستقلال هو الصراعات الاجتماعية والسياسية المدمرة والتي لم تجرِ على المسرح الديمقراطي، ولا على مسرح مدني حضاري يتسم بقبول الآخر وبروح التسامح وبنفس ديمقراطي منفتح.. ولعل الصفوات التي تغيب في سمائها روح الثقافة والتحضر أو التي لم تشبع جيداً بروح المدنية والتسامح، تعكس تصرفات غير متزنة وتتميز بتدخلات وإملاءات تشوه إيقاع الحياة المدنية، وتؤدي إلى تدهور، ولربما إلى خراب ثقافي ومدني.

أما المشكلة الكبرى التي عطلت نمو الحياة المدنية والحضرية في مدينة عدن، فهي التسييس الحاد لكل شيء: الوظيفة، والدراسة، والنقابة، والجمعية، والتنظيم، المؤسسة، ودور العبادات، والمؤسسات الثقافية.. وتزامن مع ذلك ضعف روح النظام والقانون وهيئات الضبط النظامية.

إن الطغيان الحاد للسياسة على المدينة وهيئات المجتمع المدني، ومؤسسات العلم والاقتصاد والاجتماع والثقافة والتربية والتسلية والترفيه والتفكير، وبروز ظاهرة التكفير السياسي والوطني والعقائدي.. عزز من المركزية الشديدة وأضعف من حركة الإبداع وروح المدنية والتحضر.

وقد تراجعت الحياة المدنية والثقافية لمدينة عدن ما بعد الاستقلال، وأبرز ملامح هذا التراجع كالتالي:

- ١ - تراجع دور ميناء عدن التجاري، وسوء الأحوال الاقتصادية والعيشية للمدينة.
- ٢ - تراجع الأنظمة والقوانين شيئاً فشيئاً.
- ٣ - ضعف مؤسسات الهيئات النظامية.
- ٤ - انحسار وتحجيم الحريات المدنية.
- ٥ - انتشار رقعة التشدد العقائدي والفكري وضعف روح التسامح.
- ٦ - اتساع مؤسسات المجتمع المدني وتراجع أدوارها، وفقدان استقلاليتها، وعدم قدرتها على الدفاع عن حقوق أعضائها.. فكيف لها المدافعة عن حقوق وحريات المجتمع المدني.
- ٧ - تراجع حركة المثاقفة والتأثير والتأثر الثقافي والمعرفي وسيادة التيسر الفكري.
- ٨ - الاضطرابات والرقابة والانطواء، وزيادة حدة التوترات النفسية والاجتماعية والعيشية.
- ٩ - تكرار الاصطدامات والعراكات الدموية، مما أفقد مدينة عدن جزءاً من سكونها

واستقرارها وأطلق الحياة فيها، حيث كانت عدن مركزاً لكل الدورات الدموية والصراعات القاسية، مما أثر كثيراً في الحركة المدنية والثقافية والحضارية للمدينة.

١٠ - تداخل السلطات واندماجها وعدم فصلها، وزيادة حدة المركزية، مما أضعف ديمومة الحياة المدنية والثقافية.

١١ - اتساع رقعة التدخلات في الحياة الثقافية والمدنية، وتحول بعض المتنفذين والإداريين إلى أوصياء على الثقافة وعلى الحركة المدنية والتمدن.

١٢ - اعتبار البعض ممن لا يقيمون وزناً للثقافة والمثقفين أن الثقافة صنف من أصناف الأعمال الإدارية الروتينية المعتادة.

فاستقلال المؤسسات المدنية والثقافية والإبداعية يشكل رمزاً من رموز الحداثة والتطور في المجتمع المدني، ونقطة البدء في ذلك يجب أن تكون تحرير الثقافة من السياسة. لقد هيمنت السياسة على الثقافة في معظم الأقطار العربية، فكانت النتيجة ما نراه من انحدار مستوى التعليم وانتشار الأمية، أمية القراءة والكتابة، وأمية الفكر والثقافة، واتساع الهوة بين «التقليدي» و«العصري» في مختلف مجالات الحياة العربية. وأخيراً وليس آخراً سيادة القوالب الأيديولوجية الجاهزة، التراثية والحداثية معاً، على الفكر العلمي والنقدي، وبعبارة واحدة لقد سادت السياسة على الثقافة فقتلتها، وهذا ما يحصل دائماً في كل زمان ومكان، فالسياسة سلطة والثقافة حرية<sup>(٣٢)</sup>.

إن المدنية والنهوض الحضاري والثقافي لا يمكن أن يستقيما إلا في ظل مجتمع مدني متطور وناهض، وفي ظل سيادة الحرية الفكرية والإبداعية ضمن إطار الممارسة الديمقراطية السليمة التي تركز على سيادة النظام والقانون والتشريعات، وانحسار الأهواء والأنانية، وفي ظل هيئات نظامية مستقرة وفاعلة تسوي الاعوجاجات والانحرافات. وفي هذا السياق تنبثق أهمية تعزيز الناشط المدنية للاتحادات الإبداعية الثقافية والتجمعات والمؤسسات والتنظيمات المدنية غير الرسمية، والتي تكون من أهم سماتها النشاط المثمر والاستقلال المالي والإداري والتنظيمي، والدفاع عن الحريات المدنية والنهج الديمقراطي وحركة المجتمع المدني.

ومن الضروري اليوم، إعطاء الأولوية لـ «الثقافي» على «السياسي»... إن أولوية «الثقافي» على «السياسي» في هذا السياق لا تعني إحلال المثقفين محل الساسة ولا التأملات الثقافية والمشاكل الفكرية المحض محل الممارسة السياسية والشواغل الظرفية. كلا، إن أولوية «الثقافي» على «السياسي» تعني في هذا السياق الذي نتحرك فيه قيام نوع من الإجماع الفكري بين جميع التيارات السياسية والطبقات والفئات بما في ذلك الطبقة المسيّرة نفسها، أو قسم منها على الأقل، حول قضايا وأهداف وطنية وقومية تفرضها الظروف الراهنة ككل: كالحاجة إلى تنمية مستقلة، والحاجة إلى إقرار ديمقراطية حقة تكون هي وحدها مصدر الشرعية لممارسة سلطة الحكم. الاستقلال الثقافي ليس مواجهة الآخر وحسب، بل هو أيضاً مواجهة الانا، أنانياتها وأوهامها<sup>(٣٣)</sup>.

(٣٢) محمد عابد الجابري، «الثقافة العربية اليوم ومسألة «الاستقلال الثقافي»» المستقبل العربي، السنة ١٦، العدد ١٧٤ (آب/أغسطس ١٩٩٣)، ص ١٢.  
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٤.

وفي النهاية لا يمكن إلا أن نستنتج التالي:

إن انتقال المدنية والثقافة في مدينة عدن من الانفتاح إلى الشمولية إلى الانزواء مرده إلى أسباب مختلفة ومتداخلة. وتأتي في مقدمة هذه المسببات إخضاع حركة المدنية والحضارة والثقافة للسياسة، أو بمعنى آخر التدخل السياسي القوي وغير الشفاف في كل المظاهر والحركات والنشاطات والإبداعات، صغيرها وكبيرها. وهذا أدى بدوره إلى عرقلة الحركة المدنية والثقافية وعطل دورها الريادي والتنويري والإبداعي، وكبح جماح حرية المجتمع المدني، والمبادرات الذاتية المبدعة والمستقلة.

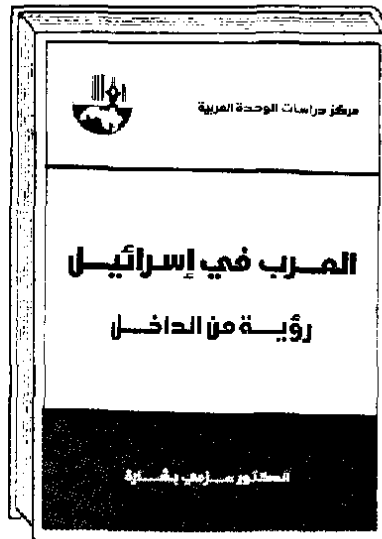
إن التدخلات والإخضاع القسري لكل النشاطات تعطل الإبداع وتمتص روح المدنية والتحضر. إننا بحاجة إلى إبداع ثقافي.. إلى مجتمع مدني متطور ومستقل ومبدع، لأن المجتمع المدني يقود إلى الديمقراطية، باعتباره عملية تطور الديمقراطية ذاتها<sup>(٣٤)</sup> □

(٣٤) عزمي بشارة، المجتمع المدني: دراسة نقدية (مع إشارة للمجتمع المدني العربي) (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨)، ص ٣٤.

## صدر حديثاً

### العرب في إسرائيل: رؤية من الداخل

د. عزمي بشارة



يعالج هذا الكتاب الشؤون المختلفة للعرب الأرض المحتلة في مدى نصف قرن، ويكشف بروح نقدية إيجابية الأخطاء والثغرات التي تكتنف حياة المجتمع العربي في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ كالطائفية والعشائرية والقطرية والفردية والانانية، كما يحلل علاقة التجمعات والأحزاب والحركات فيما بينها ومع «الدولة»، ومع الجماهير. وتتناول عمليات التشريع العقائدية فيه جميع الاتجاهات وصولاً إلى توجيه انتقادات صريحة وهادئة لليسار واليمين والعلمانية والأصولية وعقليات الأسر والطوائف والمذاهب، كما يستعرض قضيتي التحديث في غياب المدينة وارتباط نشوء المجتمع الاستهلاكي بحالة اللاتسيّس، وهما قضيتان تسمان المجتمعات العربية جميعها اليوم.

٢١٥ صفحة

الثمن: ٦ دولارات